المحاضرة2: مراحل تطور دراسة الجغرافيا السياسية

مرت دراسة الجغرافيا السياسية بعدّة مراحل يمكن إجمالها فيما يلي:

1-مرحلة الحتمية الجغرافية :

إرتبط تطور الجغرافيا السياسية بمختلف المراحل التاريخية التي عرفت نشوء الدولة، حيث إهتم الفلاسفة منذ القدم بتفسير علاقة البيئة الجغرافية بالظواهر السياسية والسلوك السياسي والبشري داخل الوحدات السياسية القديمة، ولعل من أبرز هؤلاء الفلاسفة الذين إشتهروا في هذا المجال نجد:

1-أرسطو :

ربط الفيلسوف اليوناني "أرسطو" تأثير السلوك البشري بالبيئة الطبيعية، بحيث إعتبر أن الذكاء وكل المهارات التي يمتلكها البشر والنشاط الذي يقومون به على علاقة وطيدة بنوع المناخ السائد، أما بالنسبة للدولة فقد إعتبر "أرسطو" أن طبيعة الإقليم وخصائصه الجغرافية قد تجعل منه مركزا سياسيا مؤثرا في الوحدات السياسية الأخرى، ولهذا إعتبر أن الجبال المحاطة بأثينا كانت دوما بمثابة حصنا منيعا من الغزوات الخارجية، ولذلك دعا بأن تكون أثينا عاصمة روما، إضافة إلى إقراره بأهمية توفر واجهة بحرية تسمح للدولة بممارسة نفوذها عن طريق سيطرتها على التجارة الخارجية.

كما قدم أرسطو في كتابه السياسة نموذجا مثاليا للدولة المثالية التي يمكن أن تحقق مصالح السكان، منة خلال عنصرين هما: السكان وطبيعة المنطقة مناخيا وإقتصاديا وأثر ذلك على قوة أو ضعف الدولة، كما ناقش أرسطو فكرة الحجم المثالي للسكان في الدولة، الذي يعتبره بأنه يجب أن يكون متوسطا وفق معايير أن يتمكن الناخبون من معرفة منتخبيهم وأن يتاح لهم الإستغلال الأمثل للموارد الإقتصادية في الدولة بحسب حجمهم، كما إهتم أرسطو بالموقع الجغرافي للعاصمة وضرورة أن يكون لها موقع حصين.

كما إحتوت أفكار ارسطو بعض الأفكار التي تتسم بالحتمية والتي لم يؤكدها التاريخ البشرية بالضرورة كأن سكان المناطق الباردة كشمال أوروبا يتسمون بالحيوية ولكنهم قليلوا المهارة والذكاء، لذا لا يملكون حكم

الأخرين، وأن سكان المناطق الحارة كأسيا يتسمون بالذكاء والمهارة لكنهم قليلوا النشاط بما يجعلهم خادمين للسادة ويكون منهم الخدم والعبيد.

2-أفلاطون :

إهتم أفلاطون في نفس المرحلة التاريخية ببعض الموضوعات التي ترتبط بالجغرافيا السياسية، حيث كان يرى بأن الخصائص الجغرافية قد سمحت لأثينا بأن تكون الوحدة السياسية المناسبة لتجمع السكان، كما أعتبر هذا الفيلسوف أن نشأة الدولة ووحدتها تتحقق من خلال ترابط سكانها وتجمعهم، ويلاحظ في هذه المرحلة التاريخية سيطرة الحتم الجغرافي على الأفكار الجغرافية للفلاسفة الإغريق، حيث إرتبط تفسير ظواهر الجغرافيا السياسية بالظواهر الطبيعية.

3-سترابو :

درس سترابو في كتابه الجغرافيا شروط نجاح الدول الكبيرة ومحاولة تطبيق ذلك على الإمبراطورية الرومانية حيث خلص إلى أنه لكي تقوم الإمبراطورية بوظائفها بنجاح يجب أن تتوفر لديها حكومة مركزية قوية وحكم موحد قوي، ورأى أن الجزء المسكون من العالم يتكون من ثلاث كتل قارية تتمثل في أوروبا وليبيا وأسيا وأن أذرع المحيط وخلجانه وبحاره تشكل هذه القارات وأن أوروبا هي أكثر القارات الثلاث الملائمة للنمو والإزدهار الفكري والإجتماعي، إذ يعتبر بأن القوى العالمية مركزة في الأقاليم القارية الكبيرة وليس الهوامش البحرية وأن أوروبا هي مركز هذه القوى.

4-إبن خلدون :

إستمر الحتم الجغرافي إلى غاية ظهور "إبن خلدون" الذي أعتبره الأوروبيون مؤسس الجغرافيا السياسية، خاصة لما أقر في كتابه الشهير "المقدمة" بعلاقة البيئة الجغرافية في نشأة الدولة وأثر السلالة البشرية في تلك النشأة، فضلا عن تركيزه على أثر المناخ في سلوك المجتمعات البشرية وتطورها وبناء حضارتها.

مرحلة عصر النهضة:

تم الاهتمام في هذه المرحلة على علاقة الإنسان بالبيئة عند كل المفكرين الفرنسيين على غرار جون بودان (1530-1569) ومونتسكيو (1989-1755)، حيث إعتبر بودان في كتابه "الكتب الستة عن الجمهورية"

أن الظروف المناخية للدولة هي التي تحدد شخصيتها القومية فطبيعة الإنسان وشخصيته ومزاجه ورغباته ومهاراته وطبيعة النظام السياسي تعكس مدى إرتباط الإنسان بالأرض.

كما إعتبر مونتسكيو بوجود علاقة سببية وثيقة بين المناخ والحرية أو الإستبداد السياسي، وإقترح نموذجا سياسيا حتميا يعتبر فيه بأن الديمقراطية والحرية تزداد بالبعد عن خط الإستواء كنتيجة طبيعية لإنخفاض درجة الحرارة بالبعد عنه، وعليه حسبه تقترن المناخات الدافئة عنده بالحكم الإستبدادي (إفريقيا، أسيا، أمريكا) بينما ترتبط المناخات المعتدلة(أوروبا) بالديمقراطية.

2- المرحلة الثانية :

برزت الجغرافيا السياسية على يد المنظر الألماني " راتزل" الذي إعتبر المؤسس الحقيقي لهذا المجال من خلال جعل حقل الجغرافيا السياسية كحقل مستقل بذاته في أواخر القرن التاسع عشر، خاصة لما إنتقل إلى دراسة الأساس الجغرافي للدولة معتبرا في كتابه الشهير " الجغرافيا السياسية ' العوامل الجغرافية بمثابة المحرك الرئيسي لنمو الدولة، وأن الحدود قابلة للنمو، وهو ما مهد لبروز نظرية المجال الحيوي، ويعد " راتزل" أول من درس علاقات المكان والموقع دراسة أصولية للدول المختلفة.

وقد كانت هذه الأفكار بداية لظهور الفكر الجيوبولتيكي في ألمانيا التي جسدها المفكر "هاوسهوفر"، بحيث تطورت مفاهيم الجغرافيا السياسية عند الألمان إلى دراسة علاقة الأرض ذات المغزى السياسي بالإطار الجيوبوليتيكي الذي تتحرك فيه الأحداث السياسية، وهكذا إرتبطت الجغرافيا السياسية بالفكر الجيوبولتيكي الذي أصبح يهتم بدراسة الدولة من الناحية السياسية في إطار ديناميكي على أساس أن الوحدات السياسية أصبحت كائن حي ينمو ويتطور بواسطة التوسع عبر المجال الحيوي.

وكذا أعمال فريديريك راتزل التي كانت قائمة على التبرير الفكري لتوسيع أراضي المانيا صغيرة الحجم نسبيا، وأصل تلك الأفكار كانت مستمدة عن النظرية الداروينية في العلوم البيولوجية واسعة التأثير في تلك الفترة، فشبه راتزل الدولة بالكائن الحي حيث أوضح أنها إما تنمو وتتطور أو تموت وتضمحل لأنها لا تستطيع أن تبقى ساكنة وهي كائن حي في الطبيعة تعيش في صراع دائم للحصول على مساحات أكبر لتكفل لنفسها بالبقاء والحياة، وهذا ما أصبح يعرف بفكرة المجال الحيوي للكائن الحي.

دراسة الوحدات السياسية:

حاول هارتسهورن وغيره من الباحثين تخليص الجغرافيا السياسية من التوظيف السياسي في محاولة لإرجاعها إلى مسارها العلمي، حيث أن إقتران الجغرافيا السياسية بدراسة أسباب القوة السياسية وشروط التوسع المساحي للدول أفقد الجغرافيا السياسية روحها العلمية، بحيث أصبح ينظر إليها على أنها مرتبطة بالنازية وفكرة الإعتداء والحرب على الغير، وفي محاولة التخلص من المضمون الجيوبوليتيكي للجغرافيا السياسية.

إنتقد نورمان باوندز مفهوم الدولة ككائن حي واعي وذو سلوك، إذ يعتبر الدولة بإمكانها أن تكون لها سياسة يمكن تطبيقها بواسطة صناع القرار ولا تستطيع أن تموت أو تولد أو تتدهور إلاّ من خلال القرارات التي يمليها صناع القرار فيها، لذلك فالدولة ليست مؤهلة للمنافسة على المساحة أو الموارد، كما هو حال الكائنات الحية.

وقد ظل هذا الفكر مسيطرا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، التي سمحت ببروز تطور هائل في الجغرافيا السياسية، حيث ظهرت في الخمسينات كتابات جديدة في هذا المجال، حيث ركزت على دراسة الوحدات السياسية، ولعل من أبرز أعلام هذه المرحلة نجد "هارتس هورن" الذي ساهم في وضع إطار نظري للجغرافيا السياسية، معتمدا على المنهج الوظيفي، بحيث يرى أن هذا المجال هو من صميم دراسة الدولة، ليشمل هذا المنهج وصفا تحليليا لعناصر الدولة ووظائفها.

وفي أعقاب السبعينات، التي برزت فيها تعدد الوحدات السياسية وتشابك تفاعلاتها وظهور ملامح العالمية والتكتلات الإقتصادية، بحيث أصبح العالم يشكل وحدة جغرافية سياسية واحدة، شهدت الجغرافيا السياسية تطورا هائلا، إذ برزت كتابات عبرت عن تحولات تلك المرحلة، فظهرت كتابات "جوتمان" الذي ركز على دراسة الحركة والإكنوجرافيا في الجغرافيا السياسية، فالحركة تشمل وسائل النقل والإتصالات وإنتقال الأشخاص والسلع والأفكار، أما الإكنوجرافيا فتتضمن القوة المضادة للحركة التي تمثل قيم الماضي ووجهات النظر الإجتماعية.

وبتركيز "جوتمان" على هذين الفكرتين في دراسة الجغرافيا السياسية فقد أصبح هذا المجال يراعي التحولات العالمية على كافة المستويات بما فيها الجانب الإقتصادي الذي قلص من أهمية الحدود السياسية والتوجه نحو التكتلات الجهوية، وبذلك أرتبطت الجغرافيا السياسية بمفاهيم جديدة ولعل من أبرز هذه المفاهيم مفهوم الجيو إقتصاد والجيو أمن والجيو ثقافي، من ثم أصبح موضوع الجغرافيا السياسية لا يتوقف على دراسة الدولة والحدود السياسية فحسب، بل إمتد إلى دراسة مستويات جديدة للسلطة تنافس الدولة كالأقاليم فوق القومية متمثلة في المنظمات الدولية الحكومية والتكتلات الإقليمية والجهوية.